التصوف ومحبة الله

للأستاذ حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

(٢)

المحبون يضحون فى محبة الله بكل غال ويرونه ثمنا زهيدا ولا عجب فى ذلك فقد عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم .

ويقول الامام الصوفى الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

« لن يصل العبد إلى الله تعالى وبقى معه شهوة من شهواته ولا مشيئة من مشيئاته ولن يقتل هوى نفسه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة إلى أن يذلها تذليلا ويروضها على نسيان ذاتها فيقف عند حد الذل إلى الله تعالى » .

ويقول سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب ... وان ملت يوما عنه فارقت ملتى

ولو خطرت لى فى سواك إرادة ... على خاطرى سهوا قضيت بردتى

وقال بعض الصديقين سألت ربى بأى شىء أصل إليك يارب ، فقال أترك نفسك وتعال .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى فى كيفية التدرج فى السلوك إلى الله :

« أول منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا النفس فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شىء أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح ، فإذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا إلى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة » .

« وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها » .

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه
فولجنا وبعدها قد وصلنا

وقد قال أبو سعيد الخراز : تهت فى البادية مرة فكنت أقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا
سوى ما يقول الناس فى وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وأنسها
فإن لم أجد شخصا أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفا يقول :

أيا من يرى الأسباب أعلا وجوده
ويفرح بالتيه الدنى وبالأنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة
لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى
وكنت بلا حال مع الله واقفا
تصان عن التذكار للجن والإنس

وما أروع ما يقوله أستاذى العارف بالله الشيخ عل عقل رضى الله عنه :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفسى
وجافيت أنسى فانحدرت إلى الأنس
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

وهـــل غـــير ذات الله للنفس مطلب
حرام ســـوى الرحمن يدخل فى نفسى

بعض مواقف الحب فى القرآن :

يعتز المحبون بربهم ويركنون إليه بكلياتهم وجزئياتهم . ولما كانت محبة الله لهم سابقة على محبتهم له (يحبهم ويحبونه) فإن هذه المبادلة تجعلهم على الدوام فى الحماية التى يخص الله بها أهل العناية ، فلهم فى كل ضيق فرج وفى كل محنة منحة .

وقد قص الله القصص فى القرآن وقال لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . وقد قابل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشدائد الكبرى باطمئنان المحب لأنه سيد المحبين والمحبوبين .

خذوا مثلا موقفه فى الغارحين وصل كفار قريش إلى بابه ، وقال له مولانا الصديق رضى الله عنه يارسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لابصرنا ، فقال الحبيب المصطفى صـــلى الله عليه وســـلم : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ومضى فى صـــلاته راكعا وساجدا وأيد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى :

« ثانى اثنين إذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

أو ليس الحب هو الذى جعل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يهون عليه ترك بلده مكة وهو البلد الأمين الذى نشأ فيه ـــ وتحنث قبل الرسالة محبة فى الله ثم جاءته به أشرف رسالة مصحوبة بالسبع المثانى والقرآن العظيم . ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول .

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أذن للرحمن فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغم

أو ليس هو سليل إبراهيم عليه السلام الذى هاجر بأهله من قبل قال مخاطبا

ربه « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وإنما خص الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين كما أنها موائد الموحدين .

وهو هو إبراهيم الخليل الذى امتحن فى محبة الله بأقسى امتحان فقد أمره ربه أن يذبح بيده ولده اسماعيل عليه السلام الذى جاءه على الكبر فما تردد فى الإستجابة إلى إرادة الله تعالى بل غلب حب الله على حب ولده ، وقال يابنى أنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين — صلى الله على الوالد وما ولد .

وفاز إبراهيم عليه السلام بأعظم نجاح (وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين) .

وقصة الفداء معروفة ونحن نذكرها فى كل عام بأضحية العيد ولكن شتان بين إسماعيل عليه السلام والأضحية وشتان بين طعام الأرواح وطعام الأشباح .

لا بل إنه بذاته إبراهيم عليه السلام الذى ألقى فى النار فما وهن لما أصابه فى سبيل الله حتى أخمدت أنوار الحب لهيب النار (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) .

وما أروع موقف السحرة الذين آمنوا على يد سيدنا موسى عليه السلام وهددهم فرعون بالتعذيب فيما حكى الله تعالى :

« فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » .

ثم ها هى امرأة عمران تقف من ربها موقفا رائعا من مواقف الحب الخالص فيقول الله عنها فى القرآن الكريم :

« إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق ما يشاء بغير حساب » .

وها هو الله يهدد الناكلين عن حبه تهديداً شديدا فيقول جل جلاله :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

هذه يا إخوانى وقائع ذكرتها لكم على سبيل المثال حتى تعلموا أن الرسل الكرام علموا أهل الإيمان كيف تكون محبة الله الحقة وكيف يكون الجهاد فى كسبها وكيف تكون التضحية فى سبيلها .

من آثار المحبة

١ — التسليم .

وكما يحب المحبون ربهم يحبون ما يقدره عليهم وإن كرهته النفوس عادة .

ويقرب هذا المعنى لأفهامكم ما جاء فى سيرة مولانا الحسين رضى الله عنه من أنه مات له ابن فلم ير عليه جزع كجزع عامة الناس الذين يصابون فى أبنائهم . فسئل فى ذلك فقال رضى الله عنه . « نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا فإذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا » .

ب ــ التفويض :

كذلك يفوض المحبون أمورهم لله تعالى يدبرها كيف يشاء لإيمانهم بأنه تعالى يختصهم برحمته ويحيطهم بعنايته .

وقد قص الله علينا فى القرآن الكريم من عجائب تدبيره ما يزيدنا اطمئنانا الى مبدأ التفويض .

فمثلا سيدنا يوسف عليه السلام حين كف نفسه عن الشهوة الجامحة محبة فى الله وقال « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » جعل الله له من السجن حكم مصر وصدق عليه السلام فى قوله « إن ربى لطيف لما يشاء » واللطيف مصور الشىء فى قالب ضده فسبحان من إذا لطف بعبده جعل له المحن منحا .

ومن طريف ما اطلعت عليه ذلك الحوار الذى دار بين الإمام أبو القاسم الجنيد وتلاميذه من الصوفية فقد قالوا له أين نطلب الرزق ؟ قال إن علمتم موضعه فاطلبوه قالوا نسأل الله فيعطينا قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، قالوا ندخل البيت ونتوكل قال التجربة شك قالوا إذن فما الحيلة قال ترك الحيلة .

واعلموا أيها السادة أن هذا المقام ليس لعامة الناس الذين ترتبط أسبابهم بمسبباتها بل لخواصهم الذين يجتنبهم لقربه ، ومن حكم سيدى بن عطاء الله السكندرى ارادتك التجريد مع إقامة الله لك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله لك فى التجريد انحطاط عن الرتبة العلية .

ج ــ الصبر والمصابرة :

يتعرض المحبون لابتلاءات شتى فلا يتزعزع إيمانهم . ولهم فى هذا المقام مجاهدات لا يقوى عليها غيرهم . ومن طريف ما قرأت أن صوفيا من بلخ سأل صوفيا آخر كيف حالكم ؟ قال خير حال إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا . فلم يرق للبخلى هذا الحال فقال هذا حال الكلاب عندنا فى بلخ ، قال فما حالكم فى بلخ ؟ قال إذا وجدنا آثرنا وإذا فقدنا شكرنا .